المشهد الاخير

محمد الشازلي

صُعقِتُ حقا عندما شاهدتها.. في قلبها حزن لم ينجرف إلى الظاهر، تدارى في ظلمات الداخل، وما أعظم أن تشعر بلا كلام، أن تترك إحساسك للحظات لتتكلم لغة النظرات، ظلامٌ تام في عقلي، جزءٌ كبيرٌ لم أتخيله على الرغم من نصائح من يعرفني بأن أتركها، إلا أنني كنت متمسكا بها، لكن إلى متى سأظل أعمى؟ كأني في عرض كله صمت، الممثلون يداعبون جمهورهم بأساليبهم الخاصة، لكن هذا العرض ليس له وسيلة إلا النظرات!!

يداعب قلبه خوف كبير على الرغم من جسمه البدين، مستندا إلى كتفيها، وعندما شاهدني استقام في وقفته وهمّ أن يتحدث إلا أنني استوقفته قائلا: «ماذا تريد أن تقول؟».. فلمحته وهو يرتب كلماتٍ لا يعرف بأي منها سيبدأ.. ثم رمقْتها بنظرة وهي تنظر إليّ فأبعدَتْ وجهها الذي كان مليئا بالدموع المنافقة إلى الجهة الأخرى، وعلى الرغم من كل ما في قلبي من حزن تذكرتُ يوما قضيتُه معها، كانت عفيفة اللسان، قليلة الحركة، سريعة في نسيان الهموم، دائمة في التفكير لمصلحة الآخرين قبل التفكير في نفسها، لكن تبدّل الحال إلى حالٍ آخر.. قادر أن أستشف الإنسانة الطيبة التي كانت تملأ الدنيا ضحكات ومرحا خلف ذلك الشكل الغريب الذي أراه الآن! تحاول نظراتي أن تصل إليها، ولا أدرِك كيف لا تصل إليها أحاسيسي وآهاتي

التي ترتمي عند قدميها. الوقت يمر ببطء شديد.. تناجي ربها أن ينتهي هذا المشهد على خير وبعد ذلك سوف تبتعد عن هذا الطريق الآثِم.

قلبي الآن لا يعرف هل يبكي لأنه خسر إنسانة كان يحلم يوما بأن تصبح أما لأولاده ترضعهم حنانا وعطفا كي ينشروا بين البشرية معنى آخر للحياة، أم يسعد لأنه أدرك الأمر قبل الدخول في منطقة الندم المتأخر.. العقبة الوحيدة التي كانت في هذا العرض هي صديقي!! ها هو الآن يبتسم بداخله، لكن يريد أن يصنع على وجهه علامات الحزن المزيفة من أجل أن يرِقّ قلبي عليه قليلا، صديقي هذا أم شخصٌ متحول؟! الأيام تنتصر عليَّ انتصارا ذريعا أخسر أعز جوهرتين في حياتي في بُرهة واحدة: صديقي الوحيد ومعشوقتي!

أتذكر كلامه الآن يرن في أذنيّ حتى أكاد ألا أسمع غيره: «اتركها فإنها تستغلك، ليست هي من تستحق أن تحبها وتعطي لها قلبك، فإنها تدّعي الطيبة عليك وعلى كل من لا يعرفون خبثها وأحلامها التي تحلُم بها خلف وجوه من لا يعرفونها، اسمع يا صديقي؛ فالصديق له واجب النصيحة؛ فلذاك أحذرك منها، فافعل ما تشاء، فأنت من ستخسر في النهاية».

نظرت بعيني إليهما باعثا لهما تلك الكلمات: «هل قلبي أحبكما من دون مبرر، من دون عشرة أو أيام جميلة قضيناها معا؟! هل نسيتِ اليوم الذي صارحتِني فيه بحبُكِ أمامه؟!هل نسيتِ الذكريات التي صنعناها معًا؟! أفعالها المرتبكة المتزايدة تعكس ما يختزنه قلبها المرتجف خوفا من الواقع المنصرِم، فقدَتْ أعز ما تمتلكه المرأة من أجل شهرة مزيفة وحب خائن!!